التعقيد فى شعر المتنبي

عرف شعر المتنبي بكثرة الأبيات المعقدة معنى وتركيباً ولفظاً حتى عد التعقيد من خصائصه ، وكثر ذلك كثرة أدهشت المعجبين به وعشاق شعره . وأظن أن كثيراً من المتأدبين لا يجدون غضاضة فى هذا التعقيد ، بل منهم من يلذ له هذا النوع من القول ، وأحسبهم يشعرون بشىء من الغبطة حين يجلو الشرح لهم المعنى المغلق البعيد .

والذى يعنينى الآن أن أحاول فهم سبب هـذا التعقيد فى شعر رجل كأبى الطيب مهما اختلف الناس فى حبه أو حب شعره فلا خلاف فى أنه شاعر قادر فذ . وليس للشعر معنى إن لم تكن فيه صورة نفس الشاعر سواء أكان على علم بهذه الصورة أم لم يكن . والشعر يدل على كثير من خصائص نفس قائله بصرف النظر عن المعنى الذى يدل عليه اللفظ أو الفكرة التى يريد الشاعر إبرازها . ومن السهل على الجبان أن يفخر بشجاعته حتى لتحسبه صنديداً لا يشق له غبار ، ولكنه إن كان شاعراً حقًّا فستجد فى شعره ما يدل على حقيقته مهما كانت دعواه .

ولدىّ ما يحملنى على اعتقاد أن التعقيد فى شـعر المتنبي لم يكن عفواً بل فيه ما يدل على حالة نفسية معينة .

الشعر المعقد فى ديوان أبى الطيب نوعان :

نوع جاء فيه التعقيد عرضاً ، كأنما الشاعر ارغم عليه ، وذلك كالبيت الثانى من القصيدة التى مطلعها :

أتراها لكثرة العشـاق ... تحسب الدمع خلقة فى المآقى
كيف ترثى التى ترى كل جفن ... راءها غير جفنهـا غير راقى

بدأ البيت الثانى سلساً كالأول أو أسهل منه قياداً ، ثم صعب فى أول الشطر الثانى حتى اضطر المتنبي إلى تعقيده والاغراب فيه ، ثم خلص من صعوبته فجاء على ما يراه القارئ واضح التعسف نابى اللفظ سيئ الانشاء .

وثم نوع جاء التعقيد فيه عن قصد ، فالشاعر أراد أن يكون قوله معقداً صعباً كما فى قوله :

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه   بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

لا نزاع فى أن المتنبى وضع هذا البيت ليتعب سامعيه وشارحيه قصداً . ولا بد أنه كان يسره أن يرى سامعيه فى حالة دهشة وتفكير وبحث وإن كان أثر تعبه فى إنشائه لا بد أضاع عليه شيئاً من هذا السرور .

ونوع ثالث هو خليط بين هذين النوعين من التعقيد ، كما فى قوله :

أحاد أم سداس فى أحاد   لييلتنا المنوطة بالتنادى

أراد المتنبى أن يخرج هذا البيت معقداً فأغرب فيه من أول كلمة بدأه بها إتعاباً لسامعيه ، ثم تعب هو نفسه فاضطر إلى التعقيد فوق التعقيد ، وأقحم كلمة « لييلتنا » اضطراراً كما اضطر إلى « راء » فى البيت السابق .

وكل من هذين النوعين يدل على حالة نفسية .

وإنى لأرى فى التعقيد الأول أثراً من آثار حرص المتنبى ، فهو يبدأ البيت حسناً سهل المطلع واضح الفكرة ، ثم يصعب إتمامه فيعز عليه أن يضيع البيت وفيه هذه الحسنات فيتمه بأى شكل كان . وليس له فى ذلك عذر ، إذ ليس فى الشعر العربى من الاتساق ولا بين أبيات القصيدة من الارتباط ما يجعل إسقاط بيت أو بيتين ذا أثر فى القصيدة . فلم يكن هناك مانع من ترك هذه الابيات لولا أنه عدها ملكاً له يحرص عليه ، وهو نوع من البخل قد لا يعاب كثيراً ونجده منتشراً بين كثيرين من الكتاب . ومن الناس من يحرص على فكرة عرضت له فيكررها ويسرف فى إبرازها وهى بعد عادية لا تمتاز بشىء من الطرافة . والانسان معذور حين يحرص على الدرة الغالية والفكرة العالية . ولكن الحريص يحرص على كل ما يملك وإن كان شيئاً لا قيمة له . وإنا لنجد فى الكتب التى تحوى مجموعة من الأفكار المستقلة دون أى ارتباط خاص بينها ، نجد فى هذه الكتب حتى عند أكبر المفكرين الفكرة الهزيلة بجانب الفكرة الرائعة . ويعجب الانسان كيف لم يسقط المؤلف هذا النوع من القول العادى .

أما النوع الثانى من تعقيد المتنبى فسببه أعمق . وشرح ذلك أن كثيرين من

الناس يحبون أن يضعوا صعوبات وهمية أمام أنفسهم يخادعون بها أنفسهم ليقتنعوا بأنهم يستطيعون ما يريدون متى أرادوا .

ومن ذلك أمثلة مضحكة ، منها الرجل الذى يسير على إفريز فى الشارع متعمداً ألا يضع رجله على فاصل بين حجرين ، وآخر يتوخى أن يتخطى كل حجر كبير يصعب تخطيه حين يمر به على الافريز . ومن الأمثلة المعروفة فى ذلك من يكون لديه ساعات يصل فيها إلى دار التمثيل ، فينصرف عن ذلك إلى غير عمل حتى لا يكون بينه وبين ميعاد التمثيل إلا دقائق ، ثم يهرول ويصل فى الدقيقة التى أرادها دون تأخير وهو فرح بذلك ليقنع نفسه أنه يستطيع ألا يتأخر عن ميعاده إذا أراد مهما كلفه ذلك من الصعوبات ناسياً أنه خلق لنفسه الصعوبة خلقاً .

هذا النوع من العمل له دلالة معينة ترد كثيراً عند التحليل النفسى ، وهو يدل على أمل خائب أو إخفاق متوقع ، وفى عصرنا هذا أكثر دلالته على الحب الخائب . ولا أظن ذلك أرجح الأسباب فى حالة المتنبى ، وإنما هو دليل على ما كان يعلمه فى نفسه من قصور عن بلوغ أمل يعلم حق العلم أن ليس له قدرة على تحقيقه لا لعيب فى زمانه ولكن لعيب فيه .

هذا التعقيد مقصور على عهده الأول ، والظاهرة النفسية التى نحن بصددها تكون فى عهد الشباب . ثم اتصل بسيف الدولة فلاحت له بارقة أمل . ثم أخفق وجاء إلى مصر ولم يعد به من القدرة على خداع النفس ما يستطيع أن يوهم به نفسه أن التخلص من صعوبة الشعر دليل على قدرته على التخلص من صعوبات الحياة بنفس السهولة إذا شاء .

فالتعقيد ظاهرة واضحة الدلالة على عقلية المتنبى إبان شبابه ، وهى دليل صريح على صغار فى النفس وقصور فى الهمة والكفاية وعلى تباعد ما بين غناء الفتى وآماله . وللناس أن يأملوا فى الحياة ما يشاءون وإنما يقاسون بما يستطيعون ، وبين ذلك وبين آمال المتنبى بون شاسع .

واقتناعى بهذا الدليل على الجهد القصير والعزيمة الفاترة ، يجعلنى على ثقة من حقيقة نفس أبى الطيب . ولن يغير من اقتناعى شيئاً ما زعم لنفسه من الشجاعة والقدرة على كل شىء ولا ما قيل عن علو همته ولا ما ذكر عن الخيل والليل والبيداء والسيف والرمح

وإذا شاء القارئ أن يعد هذا طعناً فى أبى الطيب فله ذلك إن كان ممن

يحبون أن يصدروا أحكاماً على الناس وطبائعهم ، ولكنى لا أحب أن يكون ذلك طعناً فى شعره . وعندى أن شعره دل على صفات كامنة غير مايدل عليه ظاهر قوله . وذلك عندى دليل على الشعر الجيد الذى خرج عن مجرد الصيغ المألوفة .

ولا يجب أن يكثر المؤلفون من ذكر علو همة المتنبى ولا أن يقدموه للشباب على أنه مثال يحتذى ؛ فهو لم يكن كذلك ، وشعره لا يحمل إلى قرائه هذا الشعور رغماً من حماسة موضوعاته .

وهنا لا أجد مفرًّا من ذكر كلمة « بول ڤاليرى » : إن الموضوع بالنسبة للقصيدة كالاسم بالنسبة للرجل ألصق الأشياء به وأبعد الأشياء عنه

***

إنما قصر شعر المتنبى من ناحية أخرى ، وذلك أنه مع دلالته على نفسه عجز تماماً عن أن ينقل للناس أية عاطفة ترفعهم عن حياتهم العادية . فإعجابنا بشعر المتنبى إعجاب عقلى محض ، أو بعبارة أخرى إعجاب بالصياغة . وقد تكون هذه العقلية الخالصة أضعف نواحى أبى الطيب .

شعر المتنبى فى أحسن حالاته يمثل أرقى الشعر العربى بكل عيوبه ومزاياه . وعلى شدة إعجاب الناس به وعلى إعجابى به فى عهد من عهود حياتى ، لم أزل أجد فيه ما يرغبنى عنه ومايجعل اللذة الفنية عنده مشوبة بكثير من النقص . ويتبين ذلك بوضوح تام عند قراءة الكثير من شعره جملة واحدة .

والعرب عادة ينظرون إلى بيت الشعر قائماً وحده مستقلا ، فمن أجاد فى كثير من الأبيات فهو شاعر مجيد ، ولم يعنوا كثيراً بدراسة القصيدة من حيث وحدة نظام التفكير فيها واتساقها ، ولم يحاول كثير من نقادهم أن ينظروا إلى ديوان الشعر على أنه عمل واحد يدل على عقلية معينة .

فطريقة النقد عند العرب المنصبة على الأبيات مستقلة ترفع المتنبى إلى ذروة المجد ، فاذا نظرنا إلى قصائده وجدناها أقل روعة . وعند نظر ديوانه جملة يتبين الكثير من النقص المعيب .

وقد حاولت أن أستقصى أسباب ما يشعر به الانسان عند قراءة الكثير من شعر المتنبى جملة من ضيق لاشك فيه . وعندى أن ذلك يرجع إلى شيئين : أنه شعر عقلى محض ، وأنه ينقصه الشعور الانسانى الرقيق .

والصفة المحببة إلى الناس فى الشعر هى حمل صور جميلة إليهم بشكل لم يكن يخطر لهم بسهولة . والخيال هو تلك القدرة التى يستطيع بها الشاعر أن ينقل إلى الناس هذه الصور نقلا يرتفع بهم فوق مستوى إحساسهم العادى . وأما الصور العقلية المحضة فقد تستساغ حيناً ولكنها حين تكثر تصبح عقيمة متعبة . وإذا كان لهـذا التعريف قيمة فالمتنبى من أقل الناس خيالا . وسأضرب لذلك أمثلة من خير شعره ؛ فليس من العدل حين ندرس الشعراء أن نلتمس ما فيهم من نقص فى غير الجيد من قولهم .

المتنبى فكر كثيراً ، ولكنه لم ير شيئاً بغير العين التى يرى بها أقل الناس قدرة على الشعر . وليس فى الصور التى يعرضها والتشبيهات التى فايتها تقريب هذه الصور ما يرفع من إحساسنا شيئاً أو يخرجنا عن نظرنا العادى وتفكيرنا اليومى .

وقديما أعجب الناس بهذا البيت :

وقفت وما فى الموت شك لواقف كأنك فى جفن الردى وهو نائم

وهو خير مثل للصور العقلية التى لاغناء فيها والتى تتعب خيال القارئ دون أن تنقل اليه صورة ما إلا صورة مستحيلة تكاد تكون عقيمة لا تستريح اليها النفس مطلقاً .

ثم قوله :

قد سودت شجر الجبال شعورهم فكأن فيه مسفة الغربان

لا أكاد أصدق أن هذه الصورة خطرت للمتنبى وهو ينظر إلى الموقعة ، فرأى فيها الشعور تسود الشجر ؛ فهى صورة عقيمة ، إنما تخطر لرجل حين يخلو إلى نفسه فى بيته يريد أن يتخيل موقعة فيد كر السواد ، فيخطر له الشعر ثم الغربان . ليس ذلك خيال رجل مرهف الحس رأى الموقعة فعلا فهاجت فى نفسه صوراً غير عادية يريد ان ينقلها إلى الناس . هذه الصفة ليس للمتنبى فيها كثير ولا قليل ، وهذا البيت يدل على أنه كان شاعراً بفكره لا باحساسه وخياله .

ثم انظر قوله :

فأقبل يمشى فى البساط فما درى إلى البحر يسعى أم إلى البدر يرتقى

فهو حين يصف رسول أمة مهزومة يدخل على ملك منتصر بيده القضاء على

كل ما هو عزيز لديه ، تجده لايصور ذلك المنظر وما فيه من رهبة وذلة أو أنفة وغضب أواحتمال على مضض أو غير ذلك من صور هذا المنظر الرهيب ، وإنما تراه يترك ذلك كله ليقول بفكره مثل هذا القول العادى : « إلى البحر يسعى أم إلى البدر يرتقى . »

وليس فى وصف المتنبى للمواقع ما يدل على أنه حضرها فرأى فيها ما لم يره أبسط الجند فكراً .

أنظر قوله :

هذى نواظرها والحرب مظلمة من الأسنة نار والقنا شمع

وقوله :

تضحى الحصون المشمخرات فى الذرى وخيلك فى أعناقهن قلائد

حتى الصورة الأخيرة أفسدها عدم اتساقها مع رهبة الموقف .

أما نقص الشعور الانسانى فى شعره فواضح مؤلم ، ويزيده نقص الصور الحية فى ذلك الشعر .

أنظر قوله :

يطعم الطير فيهم طول أكلهم حتى تكاد على أحيائهم تقع

ليس هذا مما يرفع من قيمة إحساس المتنبى حين نذكر أنه يصف جثث القتلى تحوم حولها الطيور .

وقوله :

وجرى على الورق النجيع القانى فكأنه النارنج فى الاغصان

هذه الأبيات صور عقلية عقيمة ، فهى من الناحية الفنية عبث ، ومن الناحية الانسانية مزعجة .

فى أحسن شعر المتنبى إسراف شديد فى العقلية المحضة الخالية من كل أثر للخيال الخصب ، الذى يرى فى الحياة والطبيعة مالا يراه غيره ، والذى ينقل الصور العالية إلى القارئ ، ثم إن الفرص التى أتيحت للمتنبى أن يرى عن قرب أموراً

ذات خطر لم يستطع المتنبي ان ينتفع منها فى كثير أو قليل إنما حذا حذو غيره فاجاد الاحتداء . وهو من حيث الشعر العربى قد يكون عظيما ولكنه من حيث الشعر إطلاقاً لا يمكن ان يكون ذا خطر . والذين يقرءون ديوانه جملة يشعرون بكثير من الضيق لا يشعر به من كل همه تذوق الأبيات منفردة .

دكتور محمد كامل حسين
أستاذ جراحة العظام بكلية الطب